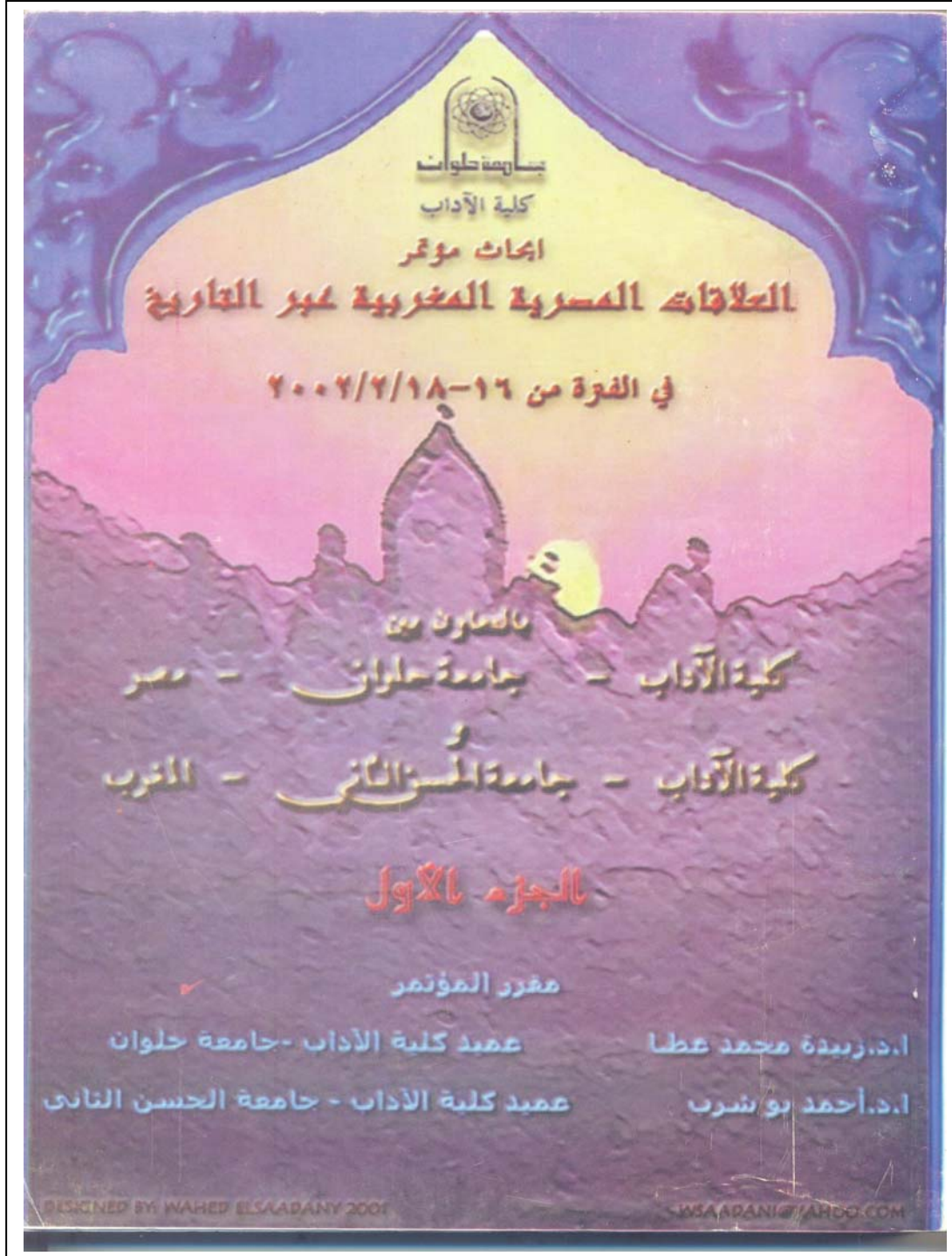


نشر هذا المقال ضمن أعمال ندوة العلاقات المصرية المغربية عبر التاريخ، التي نظمت بجامعة حلوان بمصر ما بين 16 و 18 فبراير 2002، باشتراك بين كليتي آداب حلوان وعين الشق بالدار البيضاء. ص 205-227.



عثمان المنصوري

صدى الحملة النابليونية في المغرب

لعله من نافلة القول التذكير بأهمية الحملة النابليونية، وبآثارها المختلفة على مصر والعالم الإسلامي، ومكانتها في سياق الأحداث العالمية التي رافقتها. لقد تطرق إلى هذا الموضوع العديد من الباحثين، سواء في مصر أو خارجها، وأوفوه حقه من العناية. أما هذه المداخلة فهي تسعى إلى تسليط بعض الأضواء على آثار هذه الحملة وانعكاساتها على المغرب سواء إبان الحملة أو بعدها بسنوات عديدة، إذ على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن، فإن وصول الفرنسيين إلى مصر، ومقامهم القصير بها، كان محط اهتمام ومتابعة من طرف المغاربة، وأحدث فيهم تأثيرا بليغا، وأثر على علاقات الدولة المغربية مع فرنسا لسنوات عديدة. وتهدف هذه المساهمة المتواضعة إلى إبراز ذلك عن طريق الاستعراض لما جاء في بعض المصادر المغربية، والوثائق البرتغالية التي تطرقت إلى هذا الموضوع.

اهتمام المغاربة بالحملة ومتابعتهم لأخبارها :

تلقى المغاربة نبأ الحملة الفرنسية على مصر، واحتلال الفرنسيين لهذا القطر الإسلامي باهتمام كبير. ومنهم من اعتبر ذلك من علامات الساعة لأنه اقترن في المغرب بأحداث أخرى، ومن بينها مثلا تعرض المغرب لسلسلة من الحروب الداخلية التي استمرت ما يقرب من العقد من الزمن، على إثر وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بين الأمراء المتنافسين على الحكم. ومنها أيضا الجفاف الشديد الذي عرفته البلاد سنة 1798، ووباء الطاعون الكاسح الذي أعقبه، وذهب بأرواح العديد من المغاربة. ناهيك عن استيائهم لتعطيل فريضة الحج لبضع سنوات بسبب الاحتلال الفرنسي¹. كما أن تمكن فرنسا من احتلال هذا البلد الإسلامي الكبير، يعني - في جملة ما يعنيه - أنها قادرة على إعادة الكرة مع دول إسلامية أخرى، وأن احتمالات مهاجمتها للمغرب لم تعد مستبعدة. وأن ذلك سيثبج دولا أخرى على الإقتداء بالفرنسيين، ومحاولة الاستيلاء على المغرب، وبذلك تحكم هاجس التخوف من الاحتلال الفرنسي والأوربي في سياسة المغرب لعدة عقود بعد حملة نابليون، وازداد هذا الهاجس حدة، بوصول الفرنسيين إلى شبه جزيرة إيبيريا، ومجاورتهم للمغرب.

¹. محمد المنصور، الجهود المغربية من أجل استرجاع سبتة في عهد المولى سليمان، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 5_6، سنة 1979،

تمكن المغاربة من الاطلاع على أخبار الحملة الفرنسية وتطوراتها من مصادر متعددة، عن طريق الحجاج والتجار والرسائل التي وردت من المشرق وتركيا. ولكنهم تابعوها أكثر بواسطة ممثلي الدول الأوروبية القاطنين بالمغرب، وخاصة القناصل الذين كانوا مقيمين آنذاك في مدينة طنجة، والذين كانوا يزودون باشا المدينة والوزير الأكبر بالأخبار التي كانت تصل بواسطتهما إلى السلطان في العاصمة.

إن تتبع أخبار الحملة في تقارير القناصل الأوربيين بطنجة، وفي غيرها من المدن الأوربية مثل قانس وجبل طارق، يحتاج إلى دراسة خاصة، ولذلك سنقتصر في هذه المساهمة على بعض الإشارات التي وردت في تقارير ومراسلات القنصل البرتغالي التي أتيج لنا أن نطلع عليها، والتي تقدم لنا مثالا على ما وصل إلى المغاربة عن الحملة الفرنسية والصراع الفرنسي الانجليزي، وغيرها من المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع.

بعد بضعة أشهر من وصول الفرنسيين إلى مصر، وبتاريخ 22 أكتوبر 1798، بعث القنصل البرتغالي جورج بيدرو كولاصو إلى وزير خارجية دولته السيد كوتينيو، يتقرير تضمن بعض ما وصله من أخبار عن الحملة الفرنسية، والصراع بين الفرنسيين والإنجليز، جاء فيه :

" [...] في يوم 18، دخلت إلى مرسى جبل طارق ست سفن عسكرية من تلك التي أسرت للفرنسيين في معركة الشرق ومعها خمس سفن إنجليزية جاءت برفقتها [...] لم تصل أية سفينة من جبل طارق ، ولذلك لم نتوصل بأخبار إضافية قد تكون وصلت مع هذه السفن سواء ما يتعلق بالمعركة البحرية أو بالوضعية التي توجد عليها الفرق العسكرية التي نزلت من السفن . يقول الإنجليز إنهم استولوا على مراسلات حكومة المديرين مع نابليون ، وفي نفس الوقت يدعي الفرنسيون أنهم تمكنوا من تدمير أسطول العدو في الشرق، وهو ادعاء لا يقوم على أي أساس [...] " ² .

وقد حظي "نداء" نابليون بونابرت المشهور باهتمام كبير من طرف القنصل البرتغالي، ومن لدن المغاربة الذين تمكنوا من الاطلاع على ترجمته إلى العربية. وقد عمل القنصل المذكور على نقل مضمونه إلى وزارته، وسعى جادا للحصول على الترجمة العربية التي أعدها ممثل فرنسا بطنجة، وقدمها للباشا والسلطان . وقبل أن نستعرض هذا النص المترجم، ونعلق عليه، سنتبين وقع هذا المنشور على المسيحيين بصفة عامة، وعلى القنصل البرتغالي خاصة، الذي استنكر ما جاء فيه ، واستغل المناسبة لشن حملة على الفرنسيين وقائدهم بونابرت، وذلك من خلال مقتطفات من رسالتين بعثهما القنصل إلى دولته في 3 و 13 نونبر 1798 .

² . من تقرير القنصل المذكور ، الموجه من مدينة طنجة ، والموجود بأرشيف طوري دو طومبو ، لشبونة ، الصندوق رقم : M.N..E. CX . 299.

جاء في الرسالة الأولى ما يلي :

" [...] أنتقل الآن لأحكي لكم عن ظاهرة لا يمكن أن تنال كبير استحسان من سيادتكم تتعلق بالمشاعر الحالية للفرنسيين نتيجة لمنشور وزعه بونايرت في مصر، وتم نشره في إحدى كوازيط ليدن³. اتخذ المكلف الفرنسي المقيم هنا قرارا غريبا بترجمته وأضاف إليه ما أمكنه من الخزعات التي اعتقد أنها مناسبة لمحو الآثار التي خلفتها الحملة الفرنسية لدى هؤلاء الناس، واستعمل من أجل هذا الهدف أشد العبارات خزيا، والتي لا يمكن أن يتخيلها إنسان، بحيث لم أر، ولا يمكن أن أرى ورقة كهذه.

مما جاء فيها، أن من أهم الدوافع التي دفعت نابليون بونايرت إلى مهاجمة روما، هي عزل تلك الحكومة التي تخرج منها الحملات المتتابة ضد الديانة المحمدية، وأن الحملة انتقلت بعد ذلك إلى مالطة للقضاء على هؤلاء الناس الذين يعتبرون مأمورين من طرف الحكومة الأولى لمضايقه المسلمين، وأنهم أخيرا، قاموا بحملتهم إلى مصر وذلك فقط بهدف إصلاح العادات والقضاء على الاستبداد الذي تعاني منه هذه الشعوب البائسة، وأنه أي [بونايرت] يقدس ويحترم القرآن الكريم وشرعية محمد كواحدة من أصح الديانات وخالية من التجاوزات الموجودة. ويظهر أنه خلص إلى أن الهدف الحقيقي لوجوده هناك هو إقامة الحرية والنظام في تلك البلاد الرائعة لصالح عموم الشعب القاطن بها، وأصبح يعتبر نفسه كواحد من ذلك الشعب السعيد، حسب الديانة الإسلامية ويصوم 30 يوما من رمضان. أنا لا أعرف هل المانفستو المكتوب بالكازيطة هو من صنع نابليون حقيقة، لكن ما يمكنني تأكيده لسيادتكم، هو أنه بعد أن انتهى المبعوث الفرنسي من كتابته، مع عدد من الأفكار الأخرى المكتوبة بالعربية، أرسلها إلى باشا هذه المدينة الذي تسلمها وأرسلها إلى مولاي سليمان⁴ مع باقي الرسائل التي توصل بها من عدة مغاربة بجبل طارق حيث يحكون. حسب ما سمعوا. عكس ما قيل عن نابليون بونايرت في مصر. كما أن أنباء مماثلة وصلت من الشرق عبر البر إلى السلطان الذي يوجد في حالة ترقب للحصول على أخبار أكثر وضوحا. وما يلاحظ الآن هو أن المغاربة عموما، يحتقرون كل العبارات [المتسامحة] لبونايرت، ويعطون لها معنى محددا، مستقى من السوابق التي أبداهها الفرنسيون للعالم [...]"⁵.

³. إحدى صحف أو جرائد مدينة ليدن الهولندية .

⁴. سلطان المغرب ، تولى من سنة 1790 إلى سنة 1822 .

⁵. رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 3 نونبر 1798 ، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة ، رقم : 299 ، CX ، M.N.E. مراسلات سنة 1798 .

وأرفق الرسالة الثانية بنسخة المنشور المترجمة إلى العربية ، وببعض التوضيحات الإضافية :

" [...] قدمت لكم في رسالتي السابقة بعض التفاصيل المتعلقة بالمانفستو الذي قدمه المبعوث الفرنسي هنا إلى هذا الباشا لإرساله إلى سيده السلطان. لكن بما أنني وجدت صعوبة كبيرة في الحصول على المعلومات المذكورة، فقد سعت إلى الحصول على نسخة أكدوا لي أنها نسخت من الأصل المقدم إلى الباشا، وهي نفسها التي احتفظ بها لنفسه، وهي التي أرفقها لكم مع هذه الرسالة. ومنها يتضح أن بعض النقط الأساسية لم تفهم في رسالتي السابقة [...] في النسخة المذكورة نرى تفاصيل أكثر غرابة مما لا يمكن للعقل أن يقبله. وهناك ملاحظتان أضيفتا إلى بداية المنشور ونهايته يمكنهما أن تلخصا جيدا المفهوم والمصادقية اللذين يعطيتهما المسلمون المغاربة لمانفستو بونابرت. هناك من يقولون بأن السلطان تلقى رسائل من المشرق عن طريق البر، وفيها أكدوا له القضاء على الجيش الفرنسي. وقد أعطى السلطان للشخص الذي حمل إليه ذلك الخبر مبلغ 400 دورو [...] ⁶

ويتبين من هذه المقتطفات أن نداء نابليون أحدث تأثيرا كبيرا على الأوربيين والمغاربة على السواء، وأنه لم يقنع أيًا منهما. فالقنصل البرتغالي عبر عن اندهاشه واستنكاره لما صدر من نابليون من عبارات تشيد بالإسلام، وتعادي المسيحيين، واستبعد أن تصدر منه، وخاصة ما تعلق منها بادعائه للإسلام، وغيرته على سكان مصر ومحبيه لهم. أما المغاربة فإن الملاحظات التي أرفقوها بالنص المترجم ، تعبر بوضوح عن موقفهم المكذب لمضمونه. وقد سارع الممثل الفرنسي إلى ترجمة النداء الذي نشر في إحدى الجرائد بمدينة ليدن الهولندية، وأرسله إلى الباشا، الذي بعثه إلى السلطان بعد أن احتفظ بنسخة منه. ولكننا نتبين منها أيضا أن الباشا تلقى رسائل من بعض المغاربة بجبل طارق، أخبروه فيها ببعض ما بلغهم من أخبار عن نابليون في مصر، وهي أخبار تخالف تماما ما قيل في منشور نابليون، كما وصلت أخبار أخرى عن طريق البر، مما يعني أن القناصل لم يكونوا وحدهم مصدر ما يصل من أخبار إلى الدولة المغربية، وأن السلطان والمخزن ⁷ المغربي كانا متابعين باهتمام لتطورات الموقف في مصر، وأبديا اهتماما خاصا بالحملة وقلقا وتخوفا على المسلمين. ولا أدل على ذلك من أن السلطان الذي كان يترقب بتعطش كل جديد من الأخبار

⁶ . رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 13 نونبر 1798 ، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة ، رقم : 299 ، CX ، M.N.E. مراسلات سنة 1798 .

⁷ . تطلق كلمة المخزن على الجهاز الإداري والحكومي المغربي بما فيه السلطان والوزراء والباشوات وغيرهم من الموظفين .

المتصلة بالموضوع، أعطى للبشير الذي أخبره بهزيمة نابليون مكافأة سخية، تعبر عن فرحه بالخبر، وتوضح موقفه المتعاطف مع المسلمين في مصر، والمعادي للفرنسيين.

لقد احتفظ لنا الأرشيف البرتغالي بنسخة الترجمة العربية للنداء الذي أصدره نابليون، وهو في حد ذاته يمكن أن يكون موضوع دراسة خاصة، خصوصاً إذا قورن بالنصوص الأخرى وعلى رأسها نص النداء كما ورد عند الجبرتي⁸. ويؤكد القنصل البرتغالي أن نص هذا النداء نشر في إحدى الصحف الأوروبية. وسنكتفي في هذه المساهمة بنشر النص، وتقديم بعض الملاحظات السريعة عليه⁹، وكتابة الفقرات المقابلة للنص عند الجبرتي في الهامش الأسفل للمقارنة.

نص المنشور النابليوني :

ترجمة نداء بونبرطي قائد محلة الفرانصيص

بعد نزوله على الإسكندرية (قبح الله سعيه)¹⁰

باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك فمن قديم الزمان يرجي لهذا الوقت تعذيب جميع بايات مصر وأصلهم ممالك جاءوا من جبل كَرْجَسْتَان ونيتهم وقصدهم خراب البلدان الجميلة ومن قديم الزمان يقصدون الهجوم على الجنس الفرنساوي والثوب عليهم ويظلمون تجارهم بأي نوع شاءوا واليوم بونبارطي القائد الكبير للجمهورية الفرنساوية وقاصد الحرية جاءهم هو والله تعالى رب الدنيا والآخرة ثم حكومة البايات¹¹.

أيا سكان مصر إذا قالوا لكم البايات إن الفرنساوية جاءوا لخراب دينكم فإنه منهم كذب فلا تأمنوهم وواجبهم [أجيبوهم] بأن الفرنساوي [الفرنسيين] لم يكن قصدهم ما زعموه وإتيانهم إنما هو ليقبضوا حق المسكين من يد الظالمين والفرنساويون يعبدون الله ويكرمون النبي ويعظمون القرآن المقدس¹²

⁸ . عبد الرحمان الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، 1978 ، الجزء الثاني ، ص 182 _ 184 .

⁹ . قمنا بالتسطير على الكلمات الخاطئة وعلى الإضافات التي أمكننا إضافتها لإصلاح لغة النص .

¹⁰ . توجد هذه النسخة ضمن ملحقات الرسالة المذكورة أعلاه في الهامش رقم 4 .

¹¹ . نص الفقرة الأولى عند الجبرتي : بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه من طرف أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناحق يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدي فحضر الان ساعة عقوبتهم

¹² . نص الجبرتي : " يا أيها المصريون قد قيل لكم اني ما نزلت بهذا الطرق الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتزين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من الممالك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ... " .

وبين يدي الله تعالى يكون الانسان من حيث هو مستويا [متساويا] ما عدا من هو من أهل الموهبات [المواهب] كالعالم والصالح والعاقل والحكيم والبايات لم يكن فيهم وصف من هذه الأوصاف والذي لم يكن فيه واحد منها فكيف يستهل¹³ الحكومة على الناس في هذه البلد وقد أخذوا لكم الارضين [الأراضي] الكثيرة وحازوا الحبشيات المستحسنات والخيول المسومات والسريات العظمى هل خصهم الله بهذه النعمة وحدهم فإذا زعموا ذلك فليبينوا لكم الحجة بل الله تعالى الكريم [أكرم] الأكرمين وهو سبحانه الكريم على كل إنسان ويحب الحق سبحانه واليوم أراد الله تعالى أن يكون الناس كلهم سواء في الصعود والمرتبة العظمى وأردنا حضور جموع من العلماء والصالحين وأهل الخير ويكون جمعهم إن شاء الله تعالى بالسعادة واليقين بأن الفجور والظلم الذي كان في مصر من باياتهم من قديم الزمان قد أذهب الله عنهم ولا يكون في المستقبل وترجع حراثة مصر كما كانت قبل البايات ويكثر الخصب¹⁴

الفرنسيص مسلمون حَقِيقَةً لَا مَحَالَةَ ففي الفارط عن قريب ذهبوا لرومه وهدموا كرسي الباب الكذاب الذي يزعم أنه نائب المسيح وكان دائما يحرض النصارى على كل من يتبع مذهب الإسلام والإسلام هو دين سيدنا محمد وهو الدين في الحقيقة وبَعْدَ ما عملوا في رومة ما عملوا ذهبوا إلى مالطة فقبضوها وطردها منها الكفرة الذين كانوا يزعمون إنما خلقهم الله لمحاربة المسلمين ومن قديم الزمان الجمهور الفرنسي كان محبا للسلطان العثماني ولجميع المسلمين ويحب من يحبهم ويعادي من يعاديهم وذلك حقاً و يقيناً والله تعالى يديم عزّ ملك سلاطين المسلمين في كل الأزمنة والبايات البخلاء الغواغين¹⁵ العاصين على السلطان العثماني فالله تعالى يعذبهم ويصيرهم تحت التراب¹⁶

¹³ . يستحق ، يكون أهلا .

¹⁴ . نص الجبرتي : " ... وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيول العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاما للممالك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها == وسابقا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الممالك ...".

¹⁵ . ربما الغواغيين .

¹⁶ . نص الجبرتي : " ... قولوا لامتكم ان الفرنسيات هم ايضا مسلمون مخلصون وثابت ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الكوالرية الذين يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنسيات في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك أن الممالك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممثلين لامره فما أطاعوا اصلا الا لطمع انفسهم ..."

سكان مصر لهم الآن فرحة بإتياننا ومن حقهم يعينون فَمَنْ أتاننا منهم عزما أو بقي في داره لم يدخل في هذه المسائل فلا يعينون ولا يعين غيرنا فلا يكون معه إلا الخير والذين يعينون البايات ويشارون¹⁷ عليهم فيقضى عليهم بالموت ولا نسلموهم¹⁸ ونمحو آثارهم من الدنيا¹⁹

الشرط الأول كل موضع الذي هو بينه وبين محلتنا مقدار ثلاثة ساعات من الطريق يوجهون واحدا من أعقل محلتهم ليشهدوا أنهم قبلوا إتيان الفرنسيص ويعملون السجاق الفرنساوي الذي هو أحمر أبيض أزرق²⁰

الشرط الثاني كل بلد ومدشر ومدينة قبلوا ما ذكر يعملون مع السجاق الفرنساوي سجاق محبهم السلطان العثماني الله يعظمه ويكرمه ويكون معه²¹

الشرط الثالث أشياخ العرب والأكابر من سائر البلدان والقرى يجعل في جميع حوائجهم وعزائات ديارهم وجميع أمتعتهم من قليل الأشياء وكثيرها جليلها وصغيرها طابع لكيلا تتلف له مسئلة واحدة ولا تضع لهم من أمتعتهم ولو قلامة ظفر²².

الشرط الرابع كل مدشر يمد يده يتشار²³ مع الفرانساوي فنحرقه ونمحو أثره

24

الشرط الخامس كل شيخ أو قاضي أو إمام يبقى على طريقته ودينه وانشغاله ويبقون في ديارهم ساكنين مأمونين بأنفسهم وعيالهم وأمتعتهم ويصلون صلواتهم في المساجد والمصلات ويبقون على مالهم ويعضوا على دين الاسلام بالنواجذ²⁵

17 . ويشيرون .

18 . ولا نسلهم .

19 . نص الجبرتي : " ... طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحارين فإذا عرفونا بالاكتر تسارعوا اليها بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ... " .

20 . نص الجبرتي : " ... المادة الاولى جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسعر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي واحمر ... " .

21 . هذا الشرط هو المادة الثالثة عند الجبرتي . نص الجبرتي : " ... المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي ايضا تنصب صنحاق السلطان العثماني محبنا دام بقاءه ... " .

22 . نص الجبرتي : " ... المادة الرابعة المشايخ في كل بلد يجتمعون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لتلا يضيع أدنى شيء منها ... " .

23 . يمد يده بالشعر . يعادي أو يبدأ بالشعر .

24 . نص الجبرتي : " ... المادة الثانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار ... " .

كل من سكان مصر يحمد الله على مجيء الفرنساوي وعقبتهم من يد باياتهم
ويفعلون الأفعال الموفقات ويتركون الأفعال الموفقات ويصلون ويصومون ويفعلون
الخيرات والله تعالى يجعل المجد للسلطان العثماني وينصره وينصر الجمهور الفرنساوي
على أعدائه الكفار ويعاقب البايات والممالك حتى يرجع مصر إلى حالته يلمع كشعاع
الشمس

(وهذا كله حيلة وصناعة وخديعة للمسلمين وقد انفذ الله فيه وعده ملعون
ملعون ملعون من يثق به وقد عصى الله ورسوله) .

لقد سعى ممثل دولة فرنسا بطنجة إلى تمكين السلطان من النسخة المترجمة
للمنشور النابليوني، وغرضه من ذلك تحسين صورة فرنسا وإظهارها بمظهر
الدولة الحامية للمستضعفين والمدافعة عن مبادئ العدالة والحرية والمساواة،
والمحترمة للدين الإسلامي إلى حد تفضيله على الديانة المسيحية، ولعل دافعه إلى
ذلك هو معانيته لمشاعر المغاربة المعادية للفرنسيين، وخاصة بعد الحملة النابليونية
على مصر.

وقد اطلع المغاربة فعلا على المنشور المذكور، ولكنهم لم يخذعوا لما جاء
فيه، ويظهر ذلك من العبارات التي أضيفت إلى النسخة التي احتفظ بها الباشا، حيث
أرفق العنوان بعبارة (قبح الله سعيه)، وختم بعبارة توضح جيدا الموقف المغربي،
وهي: وهذا كله حيلة وصناعة وخديعة للمسلمين وقد أنفذ الله فيه وعده، ملعون ملعون
ملعون من يثق به ويتبعه وقد عصى الله ورسوله. ويظهر أن صاحب الجملة
المضافة قد بلغته أخبار عن هزيمة نابليون كما تدل على ذلك جملة وقد أنفذ الله فيه
وعده.

وعندما نقارن بين نص الجبرتي وهذا النص، نجد أن الأفكار هي نفسها
تقريبا مع بعض الاختلاف الناتج عن الترجمة، أو ترتيب الشروط. والفرق الوحيد
الواضح في النصين هو المتعلق بالشروط الثالث المقابل للمادة الرابعة، حيث يتعلق
الأمر بمحافضة السكان على كل الممتلكات المملوكية من أجل تسليمها للفرنسيين،
وهو مخالف لما فهمه مترجم مدينة طنجة.

وكيفما كان الأمر فقد وصل النداء واطلع عليه المغاربة. ولا شك أنه أحدث
نقاشا واسعا بينهم، كما أحدث نفس التأثير لدى الهيئة القنصلية بالمدينة.
ونتبين من الأخبار التي كان القنصل البرتغالي يرسلها إلى دولته أن اهتمام
المغاربة بموضوع الحملة لم ينقطع، وأن أخبارها كانت تصل إلى المغرب من

25 . نص الجبرتي : " ... المادة الخامسة الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة الأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من اهالي
البلدان ان يبقى في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون باجمعهم ينبغي ان يشكروا الله سبحانه
وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي ادام الله احوال السلطان العسكر الفرنسي لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية
..." .

مصادر متعددة، ومنها وفود الحجاج المغاربة العائدين من الشرق، كما يتبين من المقتطفات التالية:

"[...] وصل إلى تطوان حاجان قادمان من مكة، وقالوا إنهما حملا رسائل من بعض الحجاج الآخرين من وجهاء تطوان، وفيها يحكون عن التراجيديا التي عانى منها بونابرت، وهزيمته الكاملة بعد ثلاثة أيام متتالية من القتال مع باشا سوريا الذي مات أيضا. ويذكرون أن عدد القتلى في صفوف الفرنسيين وأتباعهم كان كبيرا. وعلى الرغم من هذه المعلومات المرضية فإنه لم يصلنا ما يؤكد ما عن طريق جبل طارق، ونتيجة لذلك ما زال نفس الشك يخامرنا [...]".²⁶

كما أن قسما هاما من هذه الأخبار كان يصل إلى طنجة من جبل طارق، فيتلقاه القناصل من ممثلي دولهم ويسربونه إلى المخزن المغربي:

"[...] تأكد بواسطة رسائل موثوق بها وصلت من جبل طارق أن الأسطول الفرنسي الذي دخل إلى طولون دخل منكوس الأعلام مكسر الصواري من جراء تعرضه لعاصفة [...] ونفس الرسائل تقول إنه تم أسر ناقلتين بحريتين في الطريق من الإسكندرية إلى فرنسا وبهما أزيد من 200 من الضباط الفرنسيين الكبار الذين رافقوا بونابرت. وقد أخبر هؤلاء أنهم تركوا فريقه والجيش مصابين بالطاعون وغيره من الأمراض، وأنهم يوجدون في بؤس شديد لدرجة قد تدفعهم للتفكير في إنهاء هذه الحملة السيئة [...]".²⁷

وكان قناصل الدول الأخرى يزودون المخزن المغربي بالمعلومات المتعلقة بالأوضاع بمصر، وأحوال الفرنسيين، ويفهم من سياق هذه الرسائل أن القناصل يعرفون مسبقا رغبة المغاربة في الحصول على أخبار مفرحة عن اندحار الفرنسيين، ولذلك نجد هذه الأخبار تصاغ على شكل بشارة، وتصحبها بعض العبارات القدحية في حق نابليون والفرنسيين. ومن بين هذه الرسائل واحدة كتبها قنصل البندقية إلى الوزير المغربي محمد بن عثمان بتاريخ 11 يونيو 1799، جاء فيها:

²⁶ رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره بتاريخ 24 دجنبر 1798، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة، رقم: 299، CX، M.N.E. مراسلات سنة 1798.

²⁷ رسالة أخرى بتاريخ 8 يونيو 1799، أرشيف طوري دو طومبو بلشبونة، رقم: 299، CX، M.N.E. مراسلات سنة 1798.

" [...] واعلم محبنا أنه قد يكون عندكم خبر عمارة سفارين الفرنسيس بأنهم خدمت عليهم فرتونة عظيمة في البحر الصغير فدخلوا مراسهم ظلون فيهم ثلاثة سفارين مسقطين مكسرين الصواري وذكروا أن اثنين منهم غرقا وكذلك وقع بعمارة الاصبنيول [...] وأما عمارة لنجليز [...] خرجت متجهة إلى ظلون لتحاصر عمارة الفرانصيص التي دخلت هناك فلا تترك احدا يخرج منها بالجيش الذي أتى في العمارة بقصد نزوله باسكندرية ليمدون به مالبارط²⁸ أكبتهم الله ودمرهم تدميرا [...] " ²⁹.

وكلما حصل أحد رجال المخزن على خبر من هذا النوع، بادر بإرساله فورا إلى السلطان، كما فعل باشا تطوان عبدالرحمان عشعاش الذي بعث رسالة إلى مولاي سليمان بتاريخ 23 مارس 1804، يخبره بانهزام نابليون، جاء فيها :

" [...] وهذه النواح من فضل الله ووجود سيدنا نصره الله وأدام وجوده بخير وفي هناء ولا باس والحمد لله وقد شاع هنا على الألسنة من عند النصرية أن بوبرطى] في الهامش أيمن الرسالة : يعني بُونَبَرطى[قتل وأراح الله منه العباد [...]]"³⁰.

تأثير الحملة على علاقات المغرب الأوربية :

إذا ابتعدنا قليلا عن الحملة نفسها وظروفها وأخبارها، وحاولنا تتبع تأثيرها على الأوضاع في المغرب، وعلى علاقاته بالدول الأوربية، وخصوصا منها تلك التي ربطته بها علاقات الجوار والمصالح المشتركة، أو التي كانت لها مصالح في المغرب، نجد ان الاحتلال النابليوني لمصر أثار لدى السلاطين المغاربة مخاوف شديدة من أن يتعرض المغرب لحملة مشابهة سواء من فرنسا نفسها أو من الدول الأخرى المتربصة بالمغرب مثل إنجلترا وإسبانيا. وإذا كان عهد السلطان مولاي سليمان قد اتسم بالتحفظ الشديد في علاقاته بهذه الدول، فإن ذلك يرجع في جزء منه إلى هذا التخوف الذي أشرنا إليه. لكن تأثير الحملة على علاقات المغرب الخارجية يظهر أكثر في علاقات المغرب مع فرنسا، وميله إلى صف أعدائها، وحالة القلق من غزو " بني الأصفر " التي هيمنت على المغاربة خلال العقود الأربعة من القرن التاسع عشر، وكانت تزداد كلما ساءت الأحوال مع الدول الأوربية. وأصبحت هذه الحالة واضحة جدا عندما تمكن نابليون من أن يحط رحاله في شبه الجزيرة

²⁸ . مالبارط، صفة قدحية ، عن طريق قلب صفة اسم بونابارت ، من بونا إلى مالا ، والدعاء على الفرنسيين في الأخير لا يحتاج إلى

توضيح .

²⁹ . وثائق أكاديمية العلوم بلشبونة ، رقم 2021، بتاريخ 11 يونيو 1799 .

³⁰ . وثائق أكاديمية العلوم بلشبونة ، رقم 2021، بتاريخ 23 مارس 1804.

الإيبيرية، فأصبح الخطر أقرب، وعلى مرأى العين، كما سنتبين من الوثائق البرتغالية والمصادر المغربية التي تطرقت إلى الموضوع. في سنة 1801، خرج المغرب منهكا من وباء الطاعون، وآثاره المريعة التي شملت كل الميادين، وكان هناك تخوف كبير من أن تقوم إحدى الدول الأوروبية بمهاجمة البلاد. وقد أكد القنصل البريطاني ماطرا الذي قدم إلى فاس في نفس السنة لتجديد الاتفاقية المغربية البريطانية أن المسؤولين المغاربة كانوا جد متخوفين من احتمال تعرض البلاد لهجوم أجنبي³¹، وظهر ذلك في عدة مناسبات، من بينها مثلا هجوم قامت به سفن إسبانية على ساحل الريف، واعتبره المغاربة مقدمة لغزو إسباني أكبر شبيه بما وقع لمصر، كما يتبين من المقتطف التالي من رسالة بعثها القنصل البرتغالي إلى دولته :

" [...] يوجد عند هؤلاء الناس قلق من غزو محتمل من طرف إسبانيا وفرنسا شبيه بما حدث لمصر. ويعتبرون ما وقع بسببة مقدمة له، ففي وقت ما خرجت من سببة لانشات إلى هذه المنطقة، وهاجمت أسفل الساحل، وقتلت بعض الأغنام في البر بالرصاص. ألقى القبض على الأوائل منهم وسجنوا وأرسلوا إلى مكناس، حيث ما يزالون هناك. بعد ذلك وصل أمر إلى أولئك الناس بالساحل، أن بإمكانهم قتل أولئك الذين يأتون إلى البر [...] "³²

كانت سياسة المغرب مع فرنسا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، مقسمة بين شعور العداء، والتعاطف مع أعداء فرنسا، وبين الحذر والرغبة في الحفاظ على شعرة معاوية مع هذه الدولة، وتجنب الاحتكاك بها أو إتاحة الفرصة لها للتدخل في المغرب. ومن أجل هذا الهدف، وقع تقارب كبير بين المغرب وانجلترا، التي لم ينس لها المغاربة الدور الذي قامت به من أجل إخراج الفرنسيين من مصر، والتي تعتبر حليفا رادعا لأي خطر فرنسي محتمل. كما أن تخوفات المغاربة لم تكن بدون أساس، ففي سنة 1803، وجهت فرنسا الجاسوس علي باي العباسي للتعرف على البلاد المغربية وأخذ معلومات عن تضاريسها وتحصيناتها العسكرية، وقد تم اكتشاف أمره وطرد من المغرب³³.

بعد وصول نابليون بونابرت إلى إسبانيا والبرتغال، أصبح الخطر محققا وقريبا، وأصبح للمخاوف المغربية ما يبررها، وأصبح المغرب طرفا في الصراع الأوربي بشكل غير مباشر، لأنه مكن انجلترا من بعض التسهيلات والمساعدات لدعم أسطولها الموجود في المضيق، وتنازل لها لبعض الوقت عن جزيرة صغيرة

³¹ . المنصور ، الجهود ، م . م . مجلة كلية الآداب، الرباط ، عدد 5 _ 6 ص 32 .

³² . رسالة من القنصل كولاصو إلى وزيره كوتينيو، بتاريخ 20 شتنبر 1801 . أرشيف طوري دو طومبو ، رقم M.N.E.CX :299

³³ . زكي مبارك ، مولاي سليمان ، مجلة البحث العلمي ، عدد 42 ، صص 61 . 62 .

تدعى تاورة بالقرب من سبتة، وقدم للبرتغال المساعدات المطلوبة لأسطولها، ولم يقدم نفس العون لفرنسا ولا لإسبانيا عندما كانت خاضعة لها. ونستطيع أن نتلمس كل هذا من خلال بعض الإشارات الواردة في بعض المصادر المغربية والوثائق البرتغالية في هاته الفترة .

لقد شاع لدى المغاربة ، وربما بإيحاء من الانجليز أن نابليون يخطط لغزو المغرب، وأنه صنع قنطرة من الخشب ليعبر عليها بجيوشه إلى المغرب، ويتضح ذلك من خلال ما جاء لدى مؤرخ مغربي معاصر يدعى الضعيف، الذي سجل ذلك في تاريخه المعروف باسمه :

"[...] وفي هذه السنة³⁴ قوي سلطان الفرنسيين وهو نابليون بنابرطي وقهر أجناس النصارى وغلبهم، ولا بقي مخالفا عليه إلا اللنقليز³⁵ ، وأراد الخروج للمغرب وأتى بأجناس النصارى للبوغاز³⁶ وإلى طريفا³⁷ والجزيرات³⁸ وصنع قنطرة من اللوح ليقطع عليها ثم خاف من اللنقليز لأنه لم يتفق معه على ذلك وقال : إن أردت القطوع³⁹ للمغرب فأحرق لك السفن فإن غلبت فذاك وإن لم تغلب فيقتلكم المسلمون وذلك جزاؤكم، فتنهنه ورجع [...]"⁴⁰ .

يظهر هذا التردد بين العداء الصريح، ولزوم جانب الحياد من خلال تصرفات المخزن المغربي في هذه الفترة، ففي سنة 1807، أرسل السلطان سفيرا إلى فرنسا وهو الحاج إدريس الرامي وهو الابن الأكبر لأحد الشرفاء الأدارسة بفاس، وأرسل معه عددا من المغاربة، وتاجرا فرنسيا كان مقيما بالعرائش يدعى جان لاربر كليرمونت (Jean Larbre Clermont) وكان يتكلم العربية، بصفة مترجم. وقد وصل فعلا إلى مارسيليا يوم 6 يوليوز، وفي غشت وصل إلى باريس، واستقبل رسميا من طرف نابليون يوم الأحد 6 شتنبر⁴¹ . ولا يظهر أن هذه السفارة قد حققت نتائج ملموسة. وقد وجد السلطان المغربي نفسه في امتحان حقيقي حينما أرسل له نابليون يطلب منه ألفا من الخيل لمساعدته في حروبه، وهو أمر غير مقبول شرعا ولا يسمح به الدين، وقد استشار السلطان وزيره الذي عرض عليه حلا وسطا وهو أن يبعث لنابليون ببعض الخيول هدية، وهو أمر لا يتعارض مع الدين ويأمر بعض عماله بإرسال بعضها الآخر، وبذلك لا يكون رفضه تاما، ولا ينصاع في نفس الآن لطلب

³⁴ . يقصد سنة 1222 هجرية ، التي توافقت سنة 1807 ميلادية .

³⁵ . يقصد الانجليز .

³⁶ . مضيق جبل طارق .

³⁷ . جزيرة طريفة .

³⁸ . الجزيرة الخضراء .

³⁹ . يقصد العبور ، أو أن تقطع إلى المغرب .

⁴⁰ . محمد بن عبد السلام الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة (تاريخ الضعيف) ، تحقيق أحمد العماري ، الرباط ، 1986 ، ص 342.

⁴¹ . . 63 . p , Hespéris , 1960 , Caillé , Ambassades ,

نابليون، لأن حوالي 30 أو 40 من الخيول لا يعتبر مساعدة عسكرية ذات قيمة تذكر، ولا يعني رفضا مطلقا لطلب نابليون، وإن كان في الحقيقة رفضا مؤدبا. وقد سجل هذا الموقف المؤرخ الضعيف في كتابه المذكور:

" [...] وكان سلطان النصارى دمره الله وهو ملك بني الأصفر بونابرت أهلكه الله بعث للسلطان مولانا سليمان أيده الله على أن يبعث له الخيول بسروجها نحو الألف فرس، وتكون الخيل عتيقة من خيل أهل المغرب، فبعث السلطان لوزيره السيد محمد بن الحاج عبد السلام السلاوي وقال له :إن هذا النصراني بعث لي على أن أبعث له الخيل فكيف العمل. فقال السلاوي : ابعث له نحو 10 من الخيل و 15 فرسا وأمر كل عامل من عمالك يبعث فرسا من عنده . فبعث السلطان لعامل دكالة يبعث فرسا، وللزوين يبعث فرسا وللغازي الشاوي كذلك ولغيره من العمال كذلك أيضا [...] وفي يوم الأحد 17 صفر عام 1222 المذكور، خرجت من الرباط الخيل التي بعث عليها بونابرت لمولانا سليمان وفيها فرس عتيق بسرجه منبت⁴² مع المزامرة والشاوية⁴³ ، وساروا بالخيول لطنجة، وأخبروا بأن قونصو⁴⁴ الفرنسي قبض الخيل منهم، وأعطى لكل واحد منهم 16 ريالاً [...]".⁴⁵

ويظهر أن فرنسا لم تستسغ رفض مولاي سليمان التعاون معها، وربما بدرت منها نوايا عدائية، أو وصلت إلى مولاي سليمان أخبار من الإنجليز عن تحركات فرنسية استعدادا للهجوم على المغرب، ولذلك حدثت في المغرب حركة تأهب قصوى، واستعداد لمواجهة كل الاحتمالات، وقد بلغ عدد الجيش المتجمع في شواطئ المغرب المحاذية للمضيق حوالي 30000 رجل، وكان على رأسها باشا طنجة محمد بن عبد السلام السلاوي (2 ماي 1808)⁴⁶ . ويعطينا مؤرخنا الضعيف صورة واضحة عن هذه الاستعدادات :

" [...] وفي أوائل محرم 1223 شاع وذاع بأن النصارى دمرهم الله خارجين للمغرب، وأخذ الناس في الاستعداد للجهاد من جميع جهات المغرب كأهل فاس وتطوان والرباط وسلا وغير ذلك . وفي يوم الثلاثاء 13 صفر من العام المذكور ورد كتاب

⁴² . مرصع .

⁴³ . مع ناس من منطقتي أمزميز والشاوية .

⁴⁴ . يقصد القنصل .

⁴⁵ . الضعيف ، تاريخ ، ص 343 .

⁴⁶ . Posac Mon , Marruecos y la guerra de la indepenencia (1800-1814) , Hespéris - Tamuda, vol :XXVI – XXVII , fasc .U . 1988-89 , p140 –141

السلطان من مراكش يحذر أهل سلا وأهل الرباط من بني الأصفر ووافق اليوم الأخير من مارس، وبعث لكل مرساة من مراسي المغرب مثل الصويرة وأغادير وزمور و سلا والرباط والمهدية والعرائش وطنجة وتطوان، وأمر على كل قبيلة مجاورة لكل مرساة تأتي بخيلها ورجالها، وأمر العمال أن يميزوا⁴⁷ على ساحل البحر. وفي يوم عيد المولد عام 1223 المذكور كان الميز على كل مرساة ، وأمر الباشا الغازي الشاوي على قبائل الشاوية فأنت الرباط الفتح ومعهم عرب الويدان. وكان عيد المولد عام 1223 يوم الأربعاء. وفي هذا اليوم وهو يوم العيد المذكور، كانت على ساحل الرباط نحو الأربعين ألفا من قبائل الشاوية وعرب الويدان ووردية، وقطع أهل سلا محزمين⁴⁸، وخرج الباشا الغازي الشاوي وسرط القبائل المذكورة، وكان ميز كبير. ثم افترقت القبائل [...] وفي يوم الثلاثاء 21 ربيع الأول سمعنا بأن النصاري نزلوا بمرسة تامراغت بقرب أغادير، وشاع خبرهم بسلا والرباط ، ثم كان الخبر غير صحيح [...] " ⁴⁹.

ولعل الخوف من الخطر الفرنسي هو الذي دفع بالمغرب آنذاك إلى التقارب مع الإنجليز للاعتبارات السالف ذكرها، وتسليمهم جزيرة تاوره، وكاد الأمر أن يتحول لتحالف من أجل استرجاع سبتة، لولا تطور الموقف لصالح إسبانيا، وبداية تراجع نابليون عن شبه الجزيرة الإيبيرية⁵⁰. كما يفسر أيضا المساعدات التي قدمها لدولة البرتغال، وخاصة تموين أسطولها، وتزويد الجيش بحاجياته الغذائية، والتعبير التلقائي للمغاربة عن تضامنهم مع البرتغاليين في محنتهم، والابتهاج الذي أبدوه للانتصارات التي حققوها على الفرنسيين. وسيظهر الموقف المغربي بوضوح، في الاستقبال البارد الذي خصص للوفد الفرنسي الذي قدم إلى المغرب يعرض التحالف مع السلطان المغربي ويطلب تزويده بما يحتاج من المساعدات، ويحذره من التعاون مع الإنجليز. وكل هذه الأمور نجدها مع بعض التفصيلات في مراسلات القنصل البرتغالي التي نعرضها فيما يلي:

"[...]بمجرد أن توصلت بالخبر السعيد بأن مملكة الغرب تمكنت من صد الاستعمار المستبد لحكومة فرنسا، وأنها أقامت هيئة حاكمة لإعادة الإسم الملكي لسيدنا الأمير، بعثت بهذا الخبر إلى الوزير الأكبر لسلطان المغرب طالبا في نفس الوقت كل المساعدة والجميل من طرف هذا السلطان مما يمكن أن نحتاجه من أرضيه. وقد تلقى

⁴⁷. أن يظهروا الاستعداد والقوة وشدة المراقبة (نقلا عن المحقق) .

⁴⁸. يقصد عبر أهل سلا إلى الرباط ، مستعدين .

⁴⁹. الضعيف ، تاريخ ، ص 344 .

⁵⁰. ينظر في هذا الصدد : المنصور ، الجهود ، م.م.أعلاه .

الوزير المغربي هذا الخبر بأكبر مظاهر الفرح، ووعدني بأن سيده السلطان سيقدم كل المساعدة التي ستطلب منه للتعاون في قضية عادلة كهذه، بمجرد أن تستتب الأوضاع للعاهل البرتغالي، مراعاة للصدقة والتقدير القديمين اللذين يكنهما سلطان المغرب لعاهلنا [...]»⁵¹.

وقد احتفظ لنا الأرشيف البرتغالي بمعلومات مفصلة عن مهمة الوفد الفرنسي الذي بعثته فرنسا بقيادة القبطان بورييل (Burel) في مهمة لدى السلطان مرفوقا بممثل فرنسا بطنجة السيد دورنانو (D'Ornano)، واستقبل من طرف السلطان يوم 13 غشت 1808 استقبالا باردا⁵². وقد تزامن قدوم هذا الوفد مع وصول أنباء الانتصارات التي حققها البرتغاليون على الجيوش الفرنسية بقيادة جونو (Junot) في نفس الشهر، وما ذكره القنصل من احتدام المقاومة للوجود الفرنسي بإسبانيا، مما كان له بدون شك دور في اتخاذ السلطان لهذا الموقف الفاتر من السفارة، الذي توضحه التفاصيل التالية المذكورة في رسالة القنصل البرتغالي إلى وزيره، وكذلك الرسالة المرفقة التي كتبها أحد البرتغاليين الذين حضروا لقاء الوفد بالسلطان.

"[...] بمجرد أن تأكد الخائن بونبارت من إخضاع إسبانيا أرسل رسالة إلى سلطان المغرب بعثها من مدريد بواسطة صهره مراد مع وفد رسمي من المهندسين لتتم مرافقتها من طرف قنصله العام هنا. وكان هدف الزيارة الحصول على جزيرة صغيرة قام الإنجليز بتحصينها بهذا الشاطئ وتم استرجاعها من طرف السلطان على الفور وذلك عندما ضغط عليهم بمنع الفريشك⁵³ عنهم أو لأساطيلهم بجبل طارق، وأغلق في وجههم كل الموانئ المغربية .

بعد وصول الوفد احتدت الثورة بإسبانيا. وبدون اعتبار للظروف الجديدة فإن قنصل فرنسا أصر على تنفيذ مهمته . على الرغم من أنه خفف كثيرا من لهجته وأظهر الكثير من الخضوع، كما أسر لي بذلك الوزير المغربي .. ولا شك أنه غير المهمة التي جاء من أجلها بعد رؤيته للواقع الجديد بإسبانيا وحاول تقديم هذه الثورة على أنها عصيان استطاعت القوة الفرنسية القضاء عليه بسرعة. أخيرا تم استدعاؤهم من طرف السلطان. ومن التقرير الذي أعطاني إياه البوتيكا⁵⁴ البرتغالي الموجود في خدمة السلطان المغربي، الذي كان حاضرا في اللقاء الذي خصص لهم والذي أشرف بإرفاقه،

⁵¹ . رسالة من القنصل كولاصو إلى وزيره كوتينيو، بتاريخ 11 يوليوز 1801. أرشيف طوري دو طومبو ، رقم M.N.E.CX : 299.

⁵² . زكي مبارك ، مولاي سليمان والثورة الفرنسية ونابليون بونابارت ، مجلة البحث العلمي ، عدد 42 ، ص 67 .

⁵³ . يعني المواد الطرية من لحوم وخضر وفواكه وماء ، وكان يقدم للسفن الأجنبية التي تتراد الموانئ المغربية .

⁵⁴ . البوتيكا⁵⁴ ، شخص يداوي بالأعشاب .

يتبين أنهم لم يحظوا بلقاء ثان مع السلطان بعد اللقاء الأول، على الرغم من طلبهم ذلك وبالإحاح، ولا حتى بالاستئذان كما هو معتاد عند هذا البلاط. فقد أمروا بالانصراف إلى طنجة، التي دخلوها بدون أدنى مظهر رسمي بأمر من الباشا الحاكم الوزير سيدي محمد السلوي. بينما جرت العادة بهذه البلاد على إعداد استقبال رسمي كبير للممثلين الذين يعودون من حضرة السلطان، وهذا كله يؤكد بداهة السخط الذي تنظر به هذه الدولة إلى التصرف المخادع وسوء النية اللذين تصرفت بهما دولة فرنسا[...]⁵⁵.

ونتعرف على تفاصيل أكثر حول موضوع هذه السفارة الفرنسية من خلال التقرير الذي كتبه البوتيكااريو السيد مانويل إغناسيو دو بريطو إلى القنصل البرتغالي من مدينة فاس، بتاريخ 21 غشت 1808، وهو المرفق بالرسالة السابقة :

"[...] أحيطكم علما بوصول القنصل الفرنسي. ذهب مباشرة إلى مكناس حيث بقي يومين مخيما خارج المدينة، ثم قدم إلى هنا. أمر السلطان بإقامته في أحد البساتين. وبعد يومين، التقى به في بوجلود⁵⁶. بعد السلام، ذكر المرسول أن بونبارت بعثه ليؤكد رغبته في صداقة السلطان، وتقديره لها جيدا. وأنه وصلت له أخبار بأن جلالته غير واثق من صداقته، لذلك يطلب منه أن يعقد معه تحالفا قويا، وهو يأمل منه لذلك أن يساعده ويمد له العون ضد أعدائه. وأخبره بأن ملك إسبانيا سلم التاج بمحض إرادته لبونبارت الذي عين أخاه جوزيف حاكما على إسبانيا، وهو يوجد حاليا بمدريد، وأن الإسبان لم يقدرُوا جيدا مزايا جلالته، ولكنهم بحكم وجودهم الآن تحت الحكم الفرنسي يحيون بالاحترام اللازم ملكا مطاعا جدا مثل جلالته. وسلم له رسالة قائلا إنها من يد بونبارت. رد عليه جلالته قائلا : طيب، سأرى ما يجب عمله، وانسحب.

بعد ذلك استدعاني السلطان وأمرني أن أقرأ الرسالة، قلت له إنني لا أعرف قراءة الفرنسية فأمر أحد الكتاب "طالب" بترجمتها إلى العربية، وكانت تتضمن نفس الكلام، وجاء فيها أيضا أن الإنجليز ليسوا رجالا حسني النية، ولذلك ليس من الصواب أن يقيموا حصونا في أراضيهم لأن هذا سيضر به، خصوصا بعد قيام تحالف متين بين البلدين. كما طلب من جلالته أن يعينه ضد الإنجليز.

⁵⁵. رسالة من القنصل كولاصو إلى وزيره كوتينيو، بتاريخ 30 غشت 1808. أرشيف طوري دو طومبو، رقم 299: M.N.E.CX.

⁵⁶. ساحة عامة بفاس آنذاك، وتشتهر ببابها الذي يحمل نفس الاسم.

لكن جلالته والله الحمد، يعرف جيدا تصرفاتهم [الخرقاء] في هذه الظروف، كما خبرهم في مناسبات أخرى، ولن يمنحهم أبدا أي شيء، لأنه أحيط علما بحقيقة هؤلاء الفرنسيين. وأجابهم بأن عليهم العودة إلى طنجة، وانتظار رسالة جوابية منه [...]»⁵⁷.

لم يستطع المغاربة إذن أن يحتفظوا بموقف الحياد من الصراع بين نابليون وخصومه، واتسمت علاقاتهم بالفرنسيين بالحذر الشديد، ولم يخفوا تعاطفهم مع أعداء الفرنسيين، ولا شك أن المقتطفات التالية من رسالة التهئة التي بعثها محمد السلاوي إلى قنصل إسبانيا بعد هزيمة نابليون توضح ابتهاج الوزير المغربي لهذه الهزيمة، ومعه الموقف المغربي من نابليون. وهو موقف يرجع في أصوله إلى الحملة النابليونية على مصر.

" [...] وقد سرنا كثيرا وفرحنا وكافة الناس فرحا كثيرا على هذه الأحداث العظيمة التي أوقعها الله بظالم الدنيا ومهلك الحرث والنسل فيالها سنة ما أعظمها على خليفة الله نطلب الله أن يكمل ذلك على العباد باهلاكه وقطع دابره وإراحة الدنيا من نصبه وتعبه والمؤكد به عليك أن لا تغيب عنا ما يزداد من اخبار ذلك [...]»⁵⁸.

لقد تم القضاء في الأخير على نابليون، وتحقق دعاء الوزير المغربي، ولكن، هل انتهت متاعب المغاربة مع الفرنسيين؟ لقد ظل شبح بني الأصفر مخيما على رجال الدولة المغربية، وجثم بكلكله على صدورهم، خصوصا بعد وصولهم إلى الجزائر، وتطور العلاقات بالتدريج في إطار المسلسل الذي انتهى باحتلال المغرب، لتصدق النبوءة التي كانت تقض مضجع المغاربة، والتي تحدثت عن دخول بني الأصفر ووصولهم إلى فاس، وهو موضوع يحتاج إلى وقفة أخرى.

⁵⁷ . رسالة مرفقة بالوثيقة المشار إليها في الهامش رقم 52 .

⁵⁸ . رسالة من لوزير محمد السلاوي إلى قنصل إسبانيا المعين بطنجة منذ سنة 1810 ، السيد (Blas de Mendizabal) بتاريخ 2 فبراير

1813 . ضمن مجموعة أكاديمية العلوم ، رقم : 1020 .